Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّة
Vol.33/ No.4/ 2025 المجلد 33 / العدد 4/2025

النياحة على الموتى في بيت الإسلام اختياراً من كتاب (قبر محمد طقوس الموت وتكوين المجتمع الإسلامي) للمستشرق ليور هاليفي : دراسة تحليلية نقدية

حسن جاسم محمد حسين الخاقاني
كلية الإمام الكاظم (عليه السلام) / أقسام بابل / قسم التاريخ / العراق
hassan.jassim@iku.edu.iq

تاريخ استلام البحث: 2025/2/21 تاريخ قبول النشر: 6/ 2025/3 تاريخ نشر البحث: 29/4/ 2025

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة طقوس الموت الإسلامية، وأثرها في تكوين المجتمع الإسلامي من وجهة نظر استشراقية قدمها المستشرق الكندي ليور هاليفي، والتدرج التاريخي لطقوس الموت في الإسلام مستنداً على ما جادت به كتب المسلمين في هذا المضمار سواء التاريخية أو الأدبية أو الفقهية والحديثية عن الجنائز وطقوس الموت، وعدّ ذلك تحدياً كبيراً نظراً لكثرة المتناقضات في هذا الموضوع بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وقد دعاه ذلك إلى الإكثار من تعلم اللغة العربية والتي بدأها قبل أكثر من ثلاثين عاماً كما يدعي، والتمعن في قراءة النصوص العربية التاريخية والفقهية إلى الحد الذي يمكنه تحليل الروايات التاريخية عن موت فاطمة بنت محمد **(صلى الله عليه وآله)** وغيرها من المسلمين في القرنين الأولين للهجرة، وفهم الفقه المتعلق بالجنائز، وأراد هاليفي عن طريق دراسة طقوس الموت الإسلامية معرفة الفرق بين الطقوس الإسلامية والزرادشتية واليهودية والمسيحية، والعلاقة التي تربط بين هذه الطقوس، واخترنا أحد طقوس الموت وهو النياحة على الموتى الذي لاقى عناية كبيرة من الفقهاء المسلمين لما له من الأثار الكبيرة على المستوى الاجتماعي والسياسي لاسيما في المدن الإسلامية التي شهدت قيام الثورات والتمردات ضد السلطة، وبينا هذه الطقوس التي تناولها ليور هاليفي في فقراتٍ عديدة لتغطية طقس النياحة بكل تفاصيله، وكيف كانت هذه الطقوس في الجاهلية ولماذا حصل التصدي العنيف لهذه الطقوس في الحاضرة الإسلامية الكوفة أكثر من سواها، لهذا تناولنا هذه الآراء بالتحليل والنقد للوصول إلى الحقائق الغائبة عن معرفة هذا المستشرق، وكانت الردود مستقاة من المصادر الإسلامية الأصيلة التاريخية والحديثية والفقهية.

الكلمات الدالة: هاليفي، الطقوس، النياحة، النساء، الفقهاء، الموت، الكوفة

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّةُ جَامعةِ بَابِل للعُلومِ الإنسَانيّة
Vol.33/ No.4/ 2025 المجلد 33 / العدد 4/2025

Lamentation for the Dead in the Islamic Tradition, a Selection from the Book “Muhammad's Grave, Death Rites and the making of Islamic Society” by Orientalist Leor Halevi: A Critical and Analytical Study

Hassan Jasim Mohammed Hussein Al- Khaqani
College of Imam Al-Kadhum (peace be upon him)/Babylon Departments /History Department/ Iraq

Abstract

The purpose of this study is to learn about Islamic death rites and their impact on shaping Islamic society from the perspective of Canadian orientalist Leor Halevi. Halevi follows the historical development of these rites based on Islamic sources in this field, whether historical, literary, doctrinal, or modern, on funerals and death rites. This was considered a major challenge due to the many contradictions in this topic among the different Islamic sects, and this led him to learn the Arabic language, which he claimed he began over thirty years ago—and immersed himself in the study of historical and doctrinal Arabic texts to the extent that enabled him to analyze the historical records about the death of Fatimah, the daughter of Muhammad (peace be upon him and his family), and other Muslims in the first two centuries after the migration (Hijrah) in addition to his knowledge of doctrinal aspects of funerals. By studying Islamic death rites, Halevi wanted to investigate the differences between Islamic rites and Zoroastrianism, Judaism, and Christianity by looking at Islamic death rites. We selected one of death’s rites, Lamenting for the Dead, which received a great deal of attention and consideration from the Muslim jurists for its great impact on the social and political level., especially in Islamic cities that experienced revolutions and uprisings against authority. We analyzed these rites, which were dealt with by Leor Halevi in many paragraphs to cover the rites of lamentation in all its details. How were these rites observed before the Islamic era, and why were these rites violently rejected in the Islamic city- al-Kufa more than others. We also analyzed and criticized these opinions to get to the facts that are absent from this orientalist's knowledge, and the responses were derived from authentic Islamic historical, modern, and doctrinal sources.

Keywords: Halevi, Rites, Lamentation, women, jurists, death, Al-Kufa

المقدمة

اتخذت دراسة المستشرق ليور هاليفي طابعاً جديداً في الدراسات التاريخية الاستشراقية فقد أماطت اللثام عن موضوع في غاية الأهمية وهو التدرج التاريخي لطقوس الموت في الإسلام مستنداً على ما جادت به كتب المسلمين في هذا المضمار سواء التاريخية أو الأدبية أو الفقهية والحديثية عن الجنائز وطقوس الموت، وعدّ ذلك تحدياً كبيراً نظراً لكثرة المتناقضات في هذا الموضوع بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وقد دعاه ذلك إلى الإكثار من تعلم اللغة العربية التي بدأها قبل أكثر من ثلاثين عاماً كما يدعي، والتمعن في قراءة النصوص العربية التاريخية والفقهية إلى الحد الذي يمكنه تحليل الروايات التاريخية حول موت فاطمة بنت محمد **(صلى الله عليه وآله)** وغيرها من المسلمين في القرنين الأولين للهجرة، وفهم الفقه المتعلق بالجنائز فيقول: "وجدت روايات رائعة عن الموت والجنائز؛ لأنها تضمنت المعتقدات الدينية والأفعال الاجتماعية... أدركت أن الرواة الذكور الكوفيين يميلون إلى معارضة وجود النساء اللاتي يحضرن الجنائز وممارساتهن. وفهمت أيضاً أن الروايات المدعومة

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

بسلاسل رواية مختلطة –أسانيد مؤلفة من رواة من الإناث والذكور (محدثات ومحدثين)– تميل إلى تناول مسألة مشاركة المرأة في الاحتفالات الخاصة والطقوس العامة بطريقة أكثر تسامحاً وتعاطفاً... قررت أن أحلل – بالاضافة إلى المصادر الأدبية– المواد الأثرية التي تعكس الممارسات الجنائزية بوضوح وركزت بشكل خاص على شواهد القبور التي كتبت عليها تواريخ، وعلى ثياب الدفن."[1:ص11–14]، ويبدو أن هاليفي أراد دراسة المجتمع الإسلامي عن طريق طقوس الموت الإسلامية ومعتقداته وتمييزها عن باقي المعتقدات (اليهودية والمسيحية والزرادشتية) وقال: "إن تاريخي لموت المسلمين الأوائل وجنائزهم، تاريخ للبحث عن هوية إسلامية إلى حدٍ كبير أيضاً"[1:ص15]، وقام بتقسيم بحثه إلى سبعة فصول للإلمام بهذه الطقوس من جميع النواحي، فكان موضوع بحثنا الذي اخترناه لدراسته في الفصل الرابع الذي عنونهُ بالنياحة على الموتى في عصر الإسلام، وتناول فيه التشدد الذي رافق هذه الطقوس عند المسلمين الأوائل، وضرورة الصبر والتجلد عند حلول هذه المصيبة، ودرس موضوع سيطرة النساء على هذه الطقوس، وطريقة التعامل اللاتي لاقينها جراء انخراطهن في طقس النياحة، والأثر الكبير الذي تركه طقس النياحة على أهل الكوفة لاسيما الثوار منهم لذلك وجدت النياحة على الموتى معارضة كبيرة، وتناول الفوارق الواضحة بين المدن الإسلامية ووجد أن الكوفة هي أكثر المدن تشدداً في طقس النياحة كونها مدينة ثورات وتمردات ضد السلطات الحاكمة لاسيما بعد استشهاد الإمام الحسين**(عليه السلام)** في ما كانت مكة والمدينة أقل تشدداً على النساء وفقاً لآراء الإمام مالك، وتناول العلاقة بين الجنسين في الإسلام وإسهام ذلك في النوع الاجتماعي (الجندر)، وسنفصل فيه بما يكفي للخروج بدراسة تاريخية توضح الرؤى والأفكار التي خاض فيها هذا المستشرق، وفي الخاتمة يضع هاليفي مقارنة بين تعريف علماء الأنثروبولوجيا الذين ينظرون إلى الموت أنه يكسر مجرى الحياة الطبيعي، ويهدد تماسك المجتمع وتضامنه، وأن الناس سيمرون بمشاعر عنيفة، وينخرطون في سلوك هدام، وهنا يتدخل الدين وما يشرعه من طقوس جنائزية، ومعتقداته عن الآخرة يعمل على مواجهة "قوى الطرد المركزي للخوف والفزع والإحباط، ويوفر أقوى وسيلة لاستعادة تضامن الجماعة المهتز"[1:ص379]، وعلماء المسلمين الأوائل الذين نظروا إلى الموت على أنه أزمة تتطلب أدعية جنائزية وطقوساً أخرى لاستعادة النظام الاجتماعي، وإعادة الشعور بالتضامن المجتمعي، وأدركوا أن هذه الطقوس التي جاء بها الدين الجديد يمكن أن تخلق حدود جديدة بين المسلمين وغير المسلمين[1:ص380,379].

ولد المستشرق الكندي ليور هاليفي عام (1971م). نال شهادته في الدكتوراه عن أطروحته في التاريخ والدراسات الشرق أوسطية من جامعة هارفرد أقدم مؤسسة تليمية في الولايات المتحدة الأمريكية بتفوق، وعيّن أستاذاً في الجامعات الأمريكية، له كتاب محاكمات بدائع التجديد: الإصلاح العالمي والمادي للإسلام غي عصر رضا (1894–1935م)، ونال كتابه – قيد الدراسة– قير محمد طقوس الموت وتكوين المجتمع الإسلامي العديد من الجوائز التي تعبّر عن أهمية الكتاب والقدرة التأليفية للمستشرق ليور هاليفي منها جائزة ألبرت حوراني، وجائزة جون نيكولاس، وجائزة التميز.

وقد قسّم الباحث دراسته عن النياحة وفقاً لدراسة المستشرق ليور هاليفي إلى عدة فقرات هي:

النياحة على الموتى في بيت الإسلام:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

اتخذ هاليفي من قصة الصبر اللامحدود الذي أبداه أبا طلحة [2: 3:504–508] وزوجته (أم سليم)[2:8: 425][3:459,460] بإزاء وفاة ولدهم المفاجئ منطلقاً لمعرفة طقوس المسلمين الأوائل عند المصائب لاسيما الموت وكيفية التصرف عند وقوعه، وهو الطقس الذي تهيمن عليه النساء، وقد كان الزوج خارج البيت فعمدت الزوجة إلى إخفاء جثة الطفل والتزين للزوج ليعوضهم الله تعالى بمولود جديد، وحين سئل الزوج عن ولده أجابت قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح فجاء الرضا عن هذا الموقف من النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)**؛ لأنه يستحق الثناء الدنيوي والآخروي فعوض الله تعالى الزوجين بأولاد كثر كلهم قارئ للقرآن، وهذا الموقف الذي قدم به هاليفي دراسته عن النياحة مصداق لما يريده المسلمون الأوائل للتعبير عن الحزن المرافق لطقوس الموت فقد ألقت أم سليم الحجة على زوجها عن طريق معرفة قراره في حال أودع أحد المسلمين لديه وديعة وطالب بها هل يرجعها اليه أم لا؟ فقال: نعم. فقال: كيف اذا طالب الخالق بوديعته هل يمكن رده عن هذا الطلب "يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم قال لا قالت فأحتسب ابنك قال: فغضب وقال تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): بارك الله لكما في غابر ليلتكما" [4:7:145]،[5:280]،[6:3: 137]،[7:69]، وتمييز هذا الموقف عن التداعيات وردود الفعل العنيفة التي كانت ترافق هذا الطقس لاسيما من النساء قبل الإسلام، وقد أحال هذه الطقوس إلى أحدى البلدات على الفرات وهي سُمَيساط [8:3:258] كما يذكر ذلك لوكيانوس[3:9] الساخر من هذه البلدة قائلا: "إن النحيب منتشر في كل مكان [1: 202]"، ولم يعد هذه الطقوس ظاهرة إسلامية[1:202]، وهذا بدهي عندما يرى هذا المستشرق أن البوصلة تتجه باتجاه الخروج من هذا الوضع إلى وضع جديد فرضه الواقع الإسلامي الجديد الذي يلغي هذه الطقوس بل ويعدها من المحرمات عند بعض الفقهاء كما سيبينه البحث.

عقَد هاليفي مقارنةً بين ما لاحظهُ علماء الأنثروبولوجيا[10:7]، وعلماء النفس وبين ما لاحظهُ المتخصصون بعلم الأحياء الاجتماعي من الصدمات العنيفة التي يتعرض لها الإنسان، والحيوان تحت هول الصدمة العنيفة بسبب فقد أحد الأحبة فيشير إلى حيوان قرود المكاك والحمار الوحشي، وحيوانات أخرى وكيفية تعاملها عند فقدان وليدها، أو أحد أفراد القطيع، وكيف تحمل أمهات البابون الأصفر جثث الرضع لعدة أيام ولا تتركها حتى تصاب بالجفاف والتحلل بعدها تتخلى عنها كأنها لا تيأس ولا تريد ترك رضيعها حتى يتحلل لتتركه إلى مصيره بعد ذلك وهذا دليل واضح على عمق المشاعر وحجم الألم الذي تحملته جراء فقدها لرضيعها، وكذا تفعل شمبانزيات كَوّمبي للتعبير عن حزنها عند فقدانها ذكر بالغ، فتطلق صيحات مرعبة، ولا يريد هاليفي عن طريق هذه المقارنة أن يوضح الفارق بين حزن الحيوان وحزن البشر قائلا: "... لكن القصد هنا ليس تحليل تعبيرات الحداد في سياق مقارن واسع، بل المساهمة في دراسة الفقدان من خلال التركيز على سياق ثقافي متميز ومتغير"[1:202]، ولم يترك هاليفي موضوع الطقوس الجنائزية، وتحديداً النياحة على الموتى دون أن يزج موضوع النوع الاجتماعي (الجندر) Gender: وظهر مصطلح "الجندر" في السبعينيات مِن القرن العشرين والــ"جندر (Gender) "كلمة إنجليزية تنحدر من أصل لاتيني، وتعني في الإطار اللغوي "جينس(Genus) "؛ أي: العلاقة بين الذكر والأنثى، وكانت آن أوكلي هي التي أدخلتِ المصطلح إلى عِلم الاجتماع؛ وتوضح أوكلي أنَّ كلمة "سكس(Sex) "؛ أي:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الجنس، تشير إلى التقسيم البيولوجي بين الذكر والأنثى؛ ولأن هذه الطقوس تخص المرأة مدعياً أن دراسته هي الأولى التي تدرس العلاقة بين الجنسين، ومجال عمل النساء، ويريد أن يخلص إلى نتيجة مفادها أن المرأة كانت مضطهدة في الإسلام متخذاً من معاملة المرأة التي تؤدي طقوس النياحة على الموتى سبباً لتطرقه لهذا الموضوع فقد كانت هناك فروق واضحة بين حرية المرأة في المدينة، وبين حريتها في الكوفة فقال:"سوف يسلط هذا الفحص الضوء على طريقة أهل التقوى الإسلاميين الأوائل لحل مشكلة الممارسة الطقسية للنساء والعلاقة بين الجنسين. وبذلك، فهو يسهم في تاريخ النوع الاجتماعي (الجندر). عملياً لا توجد أية دراسة عن الممارسات الشعائرية للنساء المسلمات الأوائل... وسيكشف هذا الفصل أيضاً كيف أن عملية البناء الاجتماعي الإسلامي المبكرة فيما يتعلق بالعلاقة بين الجنسين"[1: 202]، ويبدو أن هاليفي زج هذا المصطلح الذي أُفرغ من محتواه وفق تعريفه في أمريكيا الشمالية، ومن ثم في أوربا من عام (1988م) ليشرع إلى علاقات غير شرعية بين الجنسين يحرمها الإسلام أيما تحريم، ومحاولة فرض هذه الممارسة الاجتماعية على المجتمع الإسلامي لبث روح الشذوذ عبر زواج المثليين، وفشل هذا المشروع الخبيث على الرغم من الضغوط الكبيرة التي مارستها الدول التي تبنت هذا المشروع لخلق مجتمع مختلف عن المجتمع الذي شرعه الله تعالى وضبط العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة وفق الفطرة الإلهية بقوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: 30]، ووضع الضوابط الفقهية والعقوبات على الذين يخرقون هذه العلاقات كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:1-2]، وحدد الضوابط بين الأزواج وحقوق المرأة في حال اتهامها بالفاحشة بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور:4-5] هكذا يشرع الإسلام في حال وجود الذكر والأنثى فكيف تكون العقوبات في الشذوذ الذي تريده أوربا وأمريكيا فقد وعد الله تعالى مرتكبي هذه الفاحشة بعقوبات شديدة فاقت كل العقوبات التي عاقب بها المشركين فكانت عاقبة قوم لوط مزدوجة أن خسف بهم الأرض، فجعل عاليها سافلها، ثم أرسل عليهم حجارة من سجيل منضود بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: 82-83], ويطول الحديث عن حقوق المرأة في الإسلام فهي تتمتع بحقوق كبيرة جداً جعلتها مكرمة وحرة بما يريد لها الله تعالى هذه الكرامة وهذه الحرية.

2- مولد المأساة في الجاهلية:

اتخذت طريقة ندب الموتى في الجاهلية اتجاهان الأول الصراخ والعويل الذي يتخلله نظم المراثي الشعرية كما ينقل هاليفي عن ابن قدامة الذي يعرف الندب بقوله:" وأما الندب فهو تعداد محاسن الميت وما يلقون بفقده بلفظ النداء؛ لأنه يكون بالواو مكان الياء وربما زيدت فيه الألف والهاء مثل قولهم وارجلاه واجبلاه وانقطاع ظهراه وأشباه هذا"[411:2:11] على أن يتبع هذا الندب ردود فعل أخرى فسيولوجية تتضمن تمزيق الشعر (جَزَهُ) وفصد

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الدم، وفي أحيان أخرى هناك نوع من الحث للنساء على الصبر إزاء هذه المصيبة الكبيرة كما هو الحال مع ابنتَي الشاعر لبيد بن ربيعة [1336,1335:3:12] فقد طلب منهُنَّ الصبر والحزن لمدة عام واحد فقط، وعدم خمش خُدودهنَّ أو حلاقة شعرهنَّ وهو على غير المألوف في مثل هذه الأحوال، وأوضح ذلك لَهُنَّ بأبيات:

" تمنى ابنتاي أن يَعيشَ أَبوهُما وهل أنا إلا من رَبِيعةَ أو مُضَرْ

فَقوما فَقولا بالذي قَدْ عَلمتُما ولا تخْمِشا وَجهاً ولا تَحلِقا شَعَرْ"[213:13].

وربما كانت هذه الوصية مدعاة للاستغراب لكون طقس الحزن القاسي هو السائد في الجاهلية، واستشهد هاليفي بفعل الشاعرة العربية الخنساء التي حزنت بطريقتها على أخيها بقوله:" لكن الخنساء[1827:13] أشهر شعراء الرثاء المخضرمين لا تنصح بمثل هذا الانضباط، إذ بدا الدعاء لأحد شقيقيها المتوفيين استجابة بخيلة تافهة، مقارنة بما كانت ترغب فيه من عزاء: تمزيق النائحات ثيابهن من الصدر"[205:1]، وهذه المقارنة بين طريقة حزن لبيد، وطريقة حزن الخنساء جاءت لبيان شيوع الحزن العنيف في الجاهلية ومن ثم اختلف لبيد في طريقة حزنه عن الباقين.

صوّر هاليفي أحد طقوس الحزن السائدة في الجاهلية على أنه إخلال واضح بحقوق الحيوان عن طريق التضحية بجمل يسمى (العقيرة)[593:4:14]، وفي حال تركه عند قبر صاحبه ليموت يسمى (البلية)[951:3:15]، ويشير هاليفي إلى أن الصرخة التي تطلقها الأم عند ذبح ابنها الصغير هي شبيهة بالأصوات البشرية التي تطلق عند المصيبة، ولا يعرف السبب في ترك الناقة حتى تموت، أو دفنها مع صاحبها؟ هل هي أضحيات تكفيرية، أو هدايا سخية، أو مطايا للآخرة[205:1]، والحقيقة أن سبب ذلك هو أن أهل الجاهلية كانوا يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد يقولون: نجازيه على فعله؛ لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف فنعقرها عند قبره فتأكلها السباع ومنهم من كان يذهب إلى أنه إذا عقرت راحلته عند قبره حشر في القيامة راكباً ومن لم يعقر عنده حشر راجلاً وكان هذا على مذهب من يقول منهم بالبعث من أبناء الجاهلية[149:4:16]، ولاحظ هاليفي فرقاً واضحاً بين حزن الرجال وحزن النساء على الرغم من محاولة الرجال عدم إظهار حزنهم أمام الآخرين لاسيما من يعدهم شامتين كما حصل مع أبي ذؤيب الهذلي[253:11:17] عندما أنشد:

"وتَجلُّدي للشامتينَ أُريهُمُ أَنَّي لريبِ الدَّهرِ لا أَتضَعضعُ"[12: 1652:4]

وعكس دريد ابن الصمة [185:4:18] موقفاً مخالفاً لموقف الهذلي عندما أفرغ ما في قريحته من حزن، وكانت زوجته هي الضحية فقد طلقها لأنها ألقت عليه باللوم لإبداء حزنهُ المفرط على أخيه الذي شاركه في الرضاعة من نفس الثدي لكن الشاعر لبيد[299:24:19] كان أكثر وضوحاً للتعبير عن الحزن الرجولي السائد لدى العرب في الجاهلية فعبر عن ذلك بقوله:

"فلا جزعٌ إن فرّقَ الدهرُ بيننا وكلُ فتىً يوماً به الدهرُ فاجِعُ"[45 :17:20]

يطرح هاليفي سؤالاً لماذا اتخذ الحزن طابعاً عنيفاً في الجاهلية وبداية الإسلام؟ وأجاب أن السبب يعود إلى أن النساء هنَّ من تولين هذه المهمة، وقال: "وعن طريق معرفة من ناح وعلى مَن من وجهة النظر الاجتماعية يكشف لنا مسح القصائد أن النائحات كنَّ من الأرامل، وأحياناً تصاحبهن العذارى، والجيران... وبشكل عام كانت النياحة تقام لأجل شاب (فتى) تجاوز سن المراهقة، وغالباً ما يكون متزوجاً وله أولاد... وأن الرجال الكبار نوعاً ما

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

كانوا موضوعات للرثاء يمدحون على نحو ثابت بكرمهم غالباً...؛ لأن النساء أنفسهن غالباً ما يُفكرنَّ في الفقر المدقع (العسرة) وفقدان الممتلكات (المال) الذي تسبب فيه موت حاميهن"[209:1]، ويظهر أن هذه الإجابة كانت تعدّ الجانب الاقتصادي مهماً في توجيه بوصلة الحزن والرثاء عند النساء عندما يُصبْحنَّ أمام أمرٍ واقعٍ جديد قد فرضته عليهن فقد المعيل سواء كان شاباً يترك زوجة شابة وأطفال، أو كان أباً شيخاً كبيراً، ويبدأ التفكير بالفقر المدقع الذي سيلحق بأسرته من بعده.

3- ردود فعل المسلمين تجاه طقوس الحداد والنياحة:

تحدّث هاليفي عن ردود الفعل الإسلامية الأولى اتجاه النياحة وكانت النتيجة ردود فعل غاضبة تجاه أفعال الحداد التقليدية مثل الصراخ بصوت عالٍ، وحثو التراب على الرأس، وتمزيق الشعر أصبحت بغيضة ومحظورة فكان اللجوء إلى الويل والثبور فاحشة، وحديث النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** إلى أم سلمة **(رضي الله عنها)** عندما أبدت حزنها الشديد على زوجها بعد وفاته، ونصحها بالصبر:" عن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال: لما هلك أبو سلمة بن عبد الأسد جزعت عليه أم سلمة فقال لها النبي **(صلى الله عليه وآله)**: قولي يا أم سلمة: اللهم أعظم أجرى في مصيبتي وعوضني خيرا منها، قالت: وأين لي مثل أبى سلمة يا رسول الله؟ فأعاد عليها فقالت مثل قولها الأول، فأعاد عليها رسول الله، فقالت في نفسها: أرد على رسول الله **(صلع)** ثلاث مرات؟! فقالتها، فأخلف الله عليها خيرا من أبى سلمة رسول الله **(صلى الله عليه وآله)**. وعن رسول الله **(صلى الله عليه وآله)** أنه قال: من أصيب منكم بمصيبة بعدي فليذكر مصابه بي، فإن مصابه بي أعظم من كل مصاب. "[1:21: 224]، ويبدو أن هذه الانطلاقة، التي رفدتها رواية نساء جعفر بن أبي طالب **(عليه السلام)** عندما نهاهنَّ النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** عن النياح والبكاء:"عن عائشة زوج النبي **(صلى الله عليه وسلم)** قالت لما أتى قتل جعفر في معركة مؤتة عام (8ه)[128:2:2] عرفنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الحزن قالت فدخل عليه رجل فقال: يا رسول الله إن النساء قد غلبننا وفتننا قال فارجع إليهن فأسكتهن قال: فذهب، ثم رجع فقال: له مثل ذلك، قال: يقول: وربما ضر التكلف أهله قال فاذهب فأسكتهن فان أبين فاحث في أفواههن التراب"[83:2:22]، وهذه الرواية استزادة في الخط الذي اتبعه الفقهاء الأوائل، وهو رفض هذه الطقوس التي تقوم بها النساء جملةً وتفصيلا، وأصبحت النائحات منبوذات، على الرغم من عدم نفيهن من المجتمع الإسلامي فقد استبعدن من الانتماء إلى المجتمع الإسلامي المتخيل المقدر للخلاص وفق ما ينقله هاليفي لحديث النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)**: "ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية"[432:1:23]، والواضح أن من يحدث بهذا الحديث يريد طمس الطقوس التي تنزع من الإنسان لاسيما النساء الصبر على المصيبة التي يوصي بها النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** في أحاديثه عن الصبر، وأن النياحة فعل شكوى من قضاء الله تعالى وتعبيراً عن تمرد ساخط على حكمه، ويجب تقبل صدمة الموت بصبر وتسليم، ويعتقد هاليفي عن طريق اطلاعه على طقوس الحداد أن الشريعة الإسلامية لم تفرض قيوداً على أقارب الميت من الذكور، وإنما فرضت مجموعة قليلة من المحرمات على قريباته من الإناث ويضيف قائلاً: "فقد منعت النساء اللواتي يتبعن التشريع السني من إظهار علامات (الإحداد) على أخ أو طفل لأكثر من ثلاثة أيام بعد لحظة الوفاة. في هذا الوقت، كان عليهن أن يظهرن علامة

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

العودة إلى الحياة الطبيعية عن طريق طلب عطر أصفر (صُفرة) ووضعه على الخدين والساعدين. وتحتاج الأرامل بشكل استثنائي، إلى الانتظار لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام –وهي مدة تعرف باسم (العدة)– قبل وضعهن هذا العطر للاحتفال بتوفرهن للزواج مرة أخرى"[212:1]، إن هذه القيود التي يضعها التشريع الإسلامي تنطلق من إيحاءات للمسلمين بضرورة ترويض النفس على تحمل مصيبة الموت والحصول على الأجر لاسيما بعد قبول المصيبة بأولها وعدم الاعتراض على أمر الله تعالى بقول (إنا لله وإنا اليه راجعون)[209:1] تبعاً لقوله تعالى في حال المصيبة: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:156–157]، ويعتقد هاليفي أن بعض الرجال والنساء فرضوا على أنفسهم الإقصاء الاجتماعي على الرغم من خفة القيود التي فرضت على أهل الحداد المصابين بنكبة موت أحبتهم وذويهم فيقول:" من هنا ثمة حديث ينتقد أسلوب امرأة شيعية في الحداد يتضمن وقفة احتجاجية طويلة لزوجة الحسن حفيد علي فقد بنت قبة على قبر زوجها، وأقامت بها سنة كاملة"[1: 209]، وينقل هاليفي في هذا النص انتقاد البخاري في صحيحه وشراحه لزوجة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب **(عليه السلام)**، وهي فاطمة بنت الحسين **(عليه السلام)** التي عملت فسطاطاً على قبر زوجها وجعلت القبر قبلةً لها في الصلاة كما يدعون وهي من المكروهات. أما البخاري فقد زجَ بهذه الرواية في صحيحه مع أنها أثر وليست حديثاً قد جمعه ونقله عن النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** كما هو معتاد في صحيحه! ونسبها إلى زوجة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهي فاطمة بنت الحسين **(عليها السلام)**! وأفتى بأن عملها مكروه؛ لأنه من اتخاذ القبر مسجداً! إذ قال في صحيحه: " باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور: ولما مات الحسن بن الحسن بن علي ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه آخر: بل يئسوا فانقلبوا"[90:23:2].

وقال شارح صحيحه في فتح الباري: "ومناسبة هذا الأثر لحديث الباب أن المقيم في الفسطاط لا يخلو من الصلاة هناك، فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر في جهة القبلة فتزداد الكراهة وقال ابن المنير إنما ضربت الخيمة هناك للاستمتاع بالميت بالقرب منه تعليلاً للنفس وتخييلاً باستصحاب المألوف من الأنس ومكابرة للحس كما يتعلل بالوقوف على الأطلال البالية ومخاطبة المنازل الخالية فجاءتهم الموعظة على لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا وكأنهما من الملائكة أو من مؤمني الجن"[6: 3: 161]. وعليه فمعنى كلام البخاري وشراحه أن فاطمة بنت الحسين أو زوجة الحسن (عليهم السلام) قد اتخذت القبر مسجداً فشملتها لعنة النبي (صلى الله عليه وآله)! وقد حكم شراحه بأن المنادي من الملائكة أو مؤمني الجن وهم الذين أوصلوا فاطمة لنتيجة مفادها أن عملها هذا مخالف للشريعة الإسلامية وعليها أن تكف عن ذلك لأن هذا العمل لا يُعيد الميت إلى الحياة، وهو نموذج من جفاف العواطف وقبول الأساطير، ويرى الباحث أن الكثير من الروايات تشير بوضوح إلى الحزن الكبير الذي أظهره بني هاشم والمسلمين على أئمتهم كما حصل بعد شهادة الامام الحسن المجتبى **(عليه السلام)** فينقل صاحب الطبقات في ترجمة الإمام الحسن:" فلما مات أقام نساء بني هاشم عليه النوح شهراً... مكث الناس يبكون على حسن بن علي سبعا ما تقوم الأسواق... كان الحسن بن علي سقي مرارا، كل ذلك يفلت حتى كانت المرة الآخرة التي مات فيها، فإنه كان يختلف كبده، فلما مات أقام نساء بني هاشم عليه النوح شهرا"[24: 3: 173]،[25: 3: 283]،[26: 6: 252] وبصيغة أخرى:" كان الحسن بن علي سُمَّ مراراً كل ذلك يَفلت حتى كانت المرة الآخرة التي

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

مات فيها، فإنه كان يُجْتلَف (يُستأصل) كبدُه ! فلما مات أقام نساء بني هاشم النوح عليه شهراً... مكث الناس يبكون على الحسن بن علي سبعاً ما تقومُ الأسواق... حَدَّ نساء بني هاشم على الحسن بن علي سنة" [19:27]. وقيل: "ولما مات الحسن أقام نساء بني هاشم عليه النوح شهراً، ولبسوا الحداد سنة"[15:2:3]. وقال ابن كثير: "... رأيت أبا هريرة قائما على مسجد رسول الله يوم مات الحسن بن علي وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حب رسول الله فابكوا. وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحدا من الزحام. وقد بكاه الرجال والنساء سبعا، واستمر نساء بني هاشم ينحن عليه شهرا، وَحَدَّتْ نساء بني هاشم عليه سنة "[48:8:28] وقد عم الحزن والبكاء في مكة والمدينة فقيل: "بَكى على حسن بن علي بمكة والمدينة سبعاً النساءُ والصبيان والرجال"[297:13:25] وينبغي الإلفات هنا إلى أهمية هذه العواطف الإنسانية الجياشة التي تعبر عن الحزن بالبكاء والنحيب والحداد، وهي متفردة عند أهل البيت **(عليهم السلام)** وأتباعهم، التي كانت ممدوحة وغير مذمومة، ويبدو أن الاعتراض عليها وسن الفتاوى التي تحرمها والسخرية منها، والانصياع إلى أصوات الملائكة والجن للخروج من هذه المكروهات كانت أهدافها سياسية بالدرجة الأولى تهدف إلى طمس هوية هؤلاء العظام الذين كسبوا حب الناس، كما لاحظنا في تشييع الإمام الحسن وكثرة من حضره وحزن عليه، وتجد السلطة الحاكمة فيهم منافسين لها.

رسخ الفقهاء المسلمين الأوائل مسألة فرض القيود على النساء عند إبدائهن طقس البكاء والنحيب، وهو ما سنلحظه عند تعامل الخليفة الثاني مع النساء اللاتي نَدبْنَ خالد بن الوليد لتتخذ منحاً جديداً وخطيراً بمعاقبة النساء بشدة فينقل هاليفي ذلك بقوله: "فعند وفاة الفاتح الشهير خالد بن الوليد حوالي سنة 641 أو 642 اجتمعت النساء للبكاء على البطل الراحل في بيت ميمونة (ت.681/680)، إحدى زوجات محمد، فأمر الخليفة المعروف بحماسته وحيويته عمر الأول أحد الصحابة أبن عباس (ت. 687) بدخول منزل ميمونة وإخراج النساء ثم بدأ بضرب النائحات بسوط، وسقط خمار امرأة فصاح أحدهم يا أمير المؤمنين خمارها! دعوها ولا حرمة لها" [220:1]، إن مانقله هاليفي يمكن الإشارة إليه من جانبين الأول: تشديد القيود والوصول بها إلى درجة الجلد وعدم إظهار الحرمة للنساء اللاتي يمارسنَ هذا الطقس محاولة للقضاء على هكذا ممارسات عدها المتشددين المسلمين أعرافاً جاهلية يجب الخلاص منها في الإسلام الجديد، والثاني: يمكن ربطه بما جرى للقائد خالد بن الوليد على يد الخليفة عمر بن الخطاب الذي عزله عن قيادة الجيش ليفسر أنه من العداء بين الشخصين، ويمكن أخذ هذا الاحتمال على محمل الجد فلم تحصل هذه الحادثة في التاريخ الإسلامي إلا في هذا الموقف بالتحديد.

4- حبس النساء في الكوفة:

أراد هاليفي أن يظهر في هذه الفقرة التباين الواضح في طقوس النياحة بين المدن الإسلامية كالمدينة المنورة, والكوفة, ومكة, والبصرة, وصنعاء، والفرق بين الأحاديث الشيعية والسنية، وكانت الكوفة محطته الأولى لكونها أكثر المدن تشدداً مع النياح، وكان الفقهاء فيها صارمين بمعارضتهم لها، وربطوا البكاء على الميت بعذاب القبر معتمدين على ما نقله أبو موسى الأشعري (ت.663م)، وسانده في هذا الرأي المتشدد سفيان الثوري (ت.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

778م)، وابن المعتمر (ت. 749م)[29: 1: 176],[30: 1: 312]، وإبراهيم النخعي (ت. 715م)[31: 4: 520],[1:32: 74]وقالوا أن الأجداد كانوا إذا أخرجوا الجنازة أغلقوا الباب على النساء، ونقل ابن أبي شيبة (ت. 849م) أحاديث مماثلة حول حبس النساء خلف أبواب مغلقة' واتخذت هذه المعارضة أشكالاً أخرى تصل إلى حث التراب في وجوه المعزيات، وعدم الصلاة على الميت لمنعهن من حضور الجنائز متخذين من أحاديث نبوية، وفعل النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** في عدد من هذه الحالات منها فعله مع نساء جعفر، وتصرفه مع المرأة التي أصرت على مرافقة الجنازة لكن النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** منعها وليجة لهم في تلك الأفعال[1: 223]، ويبدو أن هؤلاء الفقهاء كانوا يصبون إلى أمر ما جعل هذا التشدد القاسي مفتاحهم للتعامل مع النياحة، وقد لفت هاليفي النظر إلى السبب الحقيقي الذي يقف وراء هذه الفتاوى فيقول:"... فقد قسمت هذه المدينة إلى أحياء قبلية، وكان لكل حي مقبرة خاصة به (جبانة)، ولم تكن هذه المقابر القبلية مجرد مقابر للدفن فحسب بل كانت أيضاً بمثابة أماكن تجمع فيها المتمردون لإطلاق ثورات ضد الدولة وتنظيمها. بعبارة أخرى كانت أماكن للتحريض والاضطراب الأهلي (الفتنة)، وهو مصطلح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأنشطة النساء اللواتي اعترضن على وفاة الأفراد بما في ذلك المتمردين، وحرضّن القبيلة على الانتقام للموتى... وكثيراً ما شهدت مدينتهم فترات من الاضطراب خاصة في المدة بين معركة كربلاء عام 680، ونهاية ثورة المختار عام "687[1:1230]، ويظهر أن هاليفي قد وضع إصبعه على الجرح فقد أثرت هذه الطقوس (النياحة) تأثيراً كبيراً في نفوس أهل الكوفة لا سيما من الشيعة وكانت دافعاً لهم لإعلان العصيان والتمرد والثورة على السلطة الحاكمة، وبهذا يكون مقصد الفقهاء الرئيسي الحد من التأثير الكبير لطقس النياحة خدمةً للسلطة بالدرجة الأساس، وقد أيد هذه الفتاوى اثنين من مؤسسي المذاهب هما: أبو حنيفة (ت150ه)، وأحمد بن حنبل (ت241ه)، وأصبحت من المسلمات, ويبدو أن العراقيين قد توارثوا موضوع النياحة من الحضارة البابلية التي كان النوح فيها على (تموز) الذي عد شهيداً تخرج مواكب النياحة لتبكي عليه في تقليد سنوي تعبيراً عن الحزن العميق عليه، وأخذت طريقة الحزن عليه أشكال مختلفة[33: 292–298]، واستمرت هذه الطقوس في بلاد وادي الرافدين لتتجسد في مواكب العزاء الحسينية وأصبحت امتداداً للإرث الحضاري البابلي إلى يومنا هذا، وأخذت هذه الطقوس تأخذ منحاً تنظيمياً واضحاً لفت انتباه الجميع في طقوس تتجسد أرفع درجات النبل والكرم ونكران الذات لترسم صورة معبرةً عن الولاء والحب لأهل البيت **(عليهم السلام)**، وسنلحظ تفاوتاً في التعامل مع النياحة وتواجد النساء في الجنائز بالمدينة المنورة، التي اعتمدت في تشريعاتها في هذا الجانب على صاحب الموطأ الامام مالك بن أنس (ت179ه) قلم يمنع مالك النساء من اصطحاب الجنائز او النوح عليها متخذين من بكاء النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** على ولده إبراهيم، وارتفاع أصوات بكاء المسلمين حد النحيب، ولم يمنع مالك النساء من الخروج مع الجنازة لاسيما إذا كان الميت (الأب، الابن، الزوج، الأخت) ينقل هاليفي قائلا:" لم يجد مالك نفسه أن المواكب الجنائزية في صحبة مختلطة مزعجة كما أفاد الفقيه سحنون[34: 8: 299] (ت.855): هل سمح مالك للمرأة بالخروج في الجنائز؟ نعم. قال مالك: إنه ليس من الإشكال أن تتبع المرأة موكب ولدها، أو والدها، وكذلك الأمر بالنسبة لزوجها وأختها"[1: 224]، وبالنسبة لمكة وصنعاء، والبصرة لم تختلف تشريعات الطقوس الجنائزية فيها عن طقوس الكوفة، والسبب يعود إلى أن أسانيد الفقهاء في هذه المدن جُلها كوفيين من الذين عرفوا بتشددهم في هذا الطقس

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

إضافة إلى خصائص تلك المدن التي تلقي بظلالها على تلك الطقوس، لاسيما في البصرة التي تشترك مع الكوفة في العديد من الخصائص المشتركة[1: 224].

واختلفت نظرة الشيعة بالنسبة لطقس النياحة، وكانوا أكثر تعاطفاً مع النساء النائحات, والمآتم وينقل هاليفي عن الامام الباقر **(عليه السلام)** أنه أوصى بأن يكون مقدار تكلفة مأتمهُ ثمانمئة درهم، وسؤال الإمام الصادق **(عليه السلام)** عن أجر النائحات فقال: لابأس به؛ لأن رسول**(صلى الله عليه وآله)** قد نيح عليهم، ونادراً ما كانت كتب الفقه الشيعية تشغلها القضية التي تشغل بال السنة، وهي وجود النساء في المواكب الجنائزية[1: 233,234], ويكمن الاختلاف في الفقه الشيعي عن فقه السنة بان نظرتهم لقول البخاري ومسلم [100:2:22] عن النهي بالبكاء على الميت؛ لأنه سيُعذب ببكاء أهله على قبره، وهذا خلاف القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإنعام:164] وهذا خلاف العدل الإلهي أن يعذب الميت بفعل غيره، وإن ارتكب المحرمات. إذن البكاء على الميت سائغ دون أي كراهة، وجواز النّوح على الميِّت لأن النياحة لو كانت محرمة لوصلت إلينا حرمتها بالتواتر، بل ورد أن فاطمة **(عليها السلام)** ناحت على أبيها النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)**، وأنه أمر بالنوح على حمزة[3:35: 242] وأوصى الامام الباقر ولده الامام الصادق **(عليهما السلام)** بأن يقيم عليه النياحة في منى عشر سنوات، وقال: " إنما تحتاج المرأة في المأتم إلى النوح لتسيل دمعتها، ولا ينبغي لها أن تقول هجرا، فإذا جاءها الليل فلا تؤذي الملائكة بالنوح "[35:3:242] هكذا هي نظرة الفقه الشيعي للنياحة، وضرورة وجود النائحات في المأتم على أن لا يذهبن إلى المحرمات، وجواز خروج النساء في المأتم لقضاء الحقوق والندبة وكراهته لغير ذلك، ولا يمكن إغفال ماهية الفكر الشيعي في موضوع النياحة فهي تستند بالأساس على مظلومية الامام الحسين **(عليه السلام)** الذي بدأت مبكراً مع حديث أم سلمة: " كان جبرائيل عند النبي صلى الله عليه وسلم والحسين معي فبكى، فتركته، فدنا من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال جبرائيل: أتحبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها. فأراه فإذا الأرض يقال لها كربلاء" [31:1: 13]، ونقل بصيغة أخرى مقاربة ": كان الحسين جالسا في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقال جبريل: أتحبه؟ فقال: وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي؟ فقال؟ أما إن أمتك ستقتله، ألا أريك من موضع قبره؟ فقبض قبضة فإذا تربة حمراء "[28:6:257]. وفقاً لهذين النصين تصبح المناحة موضوعاً سماوياً، ويغدو الشعور بقدرية وحتمية استشهاد الحسين **(عليه السلام)** أكثر ارتباطاً بعلم الغيب، وأن لا دخل للبشر النائحين، ولا طاقة لهم على إحداث أي تغيير أو تعديل موضوع المناحة، فجبرائيل **(عليه السلام)** جاء بنفسه وسلم النبي **(صلى الله عليه وآله)** حفنة من تراب كربلاء المعفّر بالدم عند مولده.

5- النساء يدافعن عن النواح

ذهب هاليفي إلى أن المعركة بين الفقهاء المسلمين الأوائل، والنساء النائحات قد ربحتها النساء على الرغم من التشديد والمنع الذي اتخذ وسائل متعددة، وربما يكون هذا الفشل مصداق لحديث للنبي الأكرم**(صلى الله عليه وآله)** الذي يذكر فيه عدة مكروهات لن يتخلى عنها المسلمين وهي من أثار الجاهلية ومن ضمنها النواح على

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

الموتى[1:234,233]، وأراد هاليفي الاجابة على سبب الفشل الذي تعرض له الفقهاء بأنه سبب اقتصادي كون النساء النائحات تصدين للمنع لأنه سيفقدهن المردود المادي، وربما يكون ذلك سبب، ولكن الحقيقة تكمن في عدم قناعة النساء بتلك الاحاديث التي صاغها الفقهاء لأسباب في محصلتها لا تصب إلا في مصلحة الحكام الخائفين من ردود الفعل الغاضبة التي تنجم عن النوح على الموتى والمعارضين لعهم، وأهل الثورات، ويبدو أن النساء لم يكنَّ جاهلات بهذه الاحاديث واهدافها الحقيقية كما صرحت أم عطية[6:8:437] بقولها:"نهينا عن إتباع الجنائز ولم يعزم علينا"[22:2:78] لأداء مهمة النياحة على الموتى، وهذا يعني عدم الإصرار، أو الدعوة للامتثال الفوري لإرادة الفقهاء فهناك حيز من المناورة يمكن للنساء التحرك عن طريقه.

6- ظهور الإسلام وقضية النساء:

حاول هاليفي عن طريق هذا العنوان مناقشة قضية المرأة في الإسلام، وارتباطها بقضية الجندر، وسبق أن ناقشها في عنوان سابق, واتبع ما كتبته باحثة هي ماركريت سميث التي كتبت بحثاً عام (1928م) بعنوان (رابعة الصوفية ورفاقها القديسون في الإسلام) اعتقدت به أن الإسلام انطوى على انحطاط المرأة وتساءلت به عن وضع المرأة في الإسلام ومدى التغيير الذي طرأ عليه عما كان في الجاهلية؛ لأن الإسلام دين عالمي، ولأن حريات المرأة المسلمة في التصرف علناً كانت مقيدة إلى حدٍ كبير باسم الإسلام فتظل قضيتها في مقدمة تاريخ الجندر الاجتماعي متعللاً بعدم توافر المصادر الإسلامية في القرنين الأول والثاني التي كتبت عن أوضاع المرأة في الإسلام وقبله فحكم باستحالة معرفة أوضاع المرأة هل تحسنت أم تدهورت بناءً على طريقة تعامل النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** مع النساء[1:239,238]، وسبق أن ناقشنا ارتباط قضية الجندر بنساء الإسلام، ويعتقد هاليفي أن أثر البلدان المفتوحة على النساء بدا واضحاً نتيجة انغماس المسلمين في هذه البلدان، وتأثرهم بالهيمنة الذكورية لهذه البلدان كما في العراق والشام، بعد أن كانت في القرن السابع في مكة والمدينة (جمهورية فضيلة متساوية) يتساوى فيها الرجال والنساء[1: 239]، ويبدو أن هذا الاعتقاد لا يصمد أمام الواقع الذي يعطي للنساء في العراق والشام مكانة متميزة استطاعت المرأة الحصول عليها عبر كفاحٍ شاق فشاركت في الحكم والإدارة، والفعاليات المهنية والاجتماعية على حدٍ سواء لتشارك الرجل فيها، ونجحت في ذلك أيما نجاح في وقت كانت المرأة في أوربا بأقسى حالات التخلف والظلم والاضطهاد هذا من جانب، ومن جانب آخر كانت الشريعة الإسلامية قد أعطت المرأة استحقاقها بدءاً من الحق باختيار الزوج إلى حقها في الميراث، وذكرها مرادفة للرجل في آيات كثيرة تكريماً لها، ووصية النبي الأكرم **(صلى الله عليه وآله)** بها في حجة الوداع[36: 4: 102]، [37: 2: 109].

وسار هاليفي في نفس الاتجاه الذي انتهجه المستشرقون في أن الدين الإسلامي مستنسخ من اليهودية والمسيحية والزرادشتية قائلاً:"... وبناءً عليه لا يتوقع المرء أية اختلافات جوهرية بين ديانة مسلمي مدن العراق ودين اليهود أو المسيحيين أو الزرادشتيين، وهم من غير المسلمين الذين عاشوا في هذه المدن أيضاً. إلى ذلك

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

يتوقع المرء أن يكون تاريخ النساء في العصر القديم المتأخر غير قابل للتمييز تقريباً عن تاريخ النساء في الحقبة الإسلامية المبكرة" [1: 240]. إن هذا الارتباط الوثيق بين الإسلام الجديد وهذه الديانات الذي تحدث عنه هاليفي لا يمكن عدّه صحيحاً؛ لأن الإسلام استطاع أن يبني مجتمعاً جديداً خرج الناس فيه من وصاية اللادين التي كانت سائدة بسبب التحريف الذي حلَّ بالكتب السماوية التوراة والإنجيل اللذان تلاعبت بهما أيدي الكهان والقساوسة، وفرضوا سيطرة المعبد والكنيسة على الناس كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء:46] ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[المائدة:13] ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾[المائدة: 41], وبعد ذلك يتحدث عن اختلاف المُثُل الأبوية في الحامية العراقية الكوفة بشكل كبير عن المُثُل الزرادشتية واليهودية والمسيحية فكان أهل التقوى كما يصفهم حريصين على الفصل بين النساء والرجال، وأكثر حرصاً على الحد من أنشطة النساء في الأماكن العامة، وانحصر الأمر بالنسبة للزرادشتية في موضوع النساء على الطهارة والنجاسة، ومنعها من ان تكون كاهنة، أو تقوم بمراسيم الدفن، لكنها لم تمنع النساء من المشاركة في الطقوس الجنائزية العامة، ولكن في مسألة الحداد فقد تأثر العراقيون كثيراً بالطقوس الزرادشتية [1:240,241] وفي هذا تناقض واضح فهو من جهة يحدد مراسيم الحداد التي فرضها المسلمون الاوائل في الكوفة، وأسباب ذلك الفرض، ومن جهة أخرى يربط بين طقوس الحداد الزرادشتية، وطقوس أهل الكوفة وهذا لا يتوافق مع الواقع فطقوس الزرادشتية في الحداد هي : "تبدأ مراسم العزاء والحِداد عقب إيداع الميْت مثواه الأخير، فيجلس أهل الميْت على الأرض حفاة، حاسري الرؤوس، يستقبلون المعزّين لمدّة تمتدّ بين ثلاثة إلى عشرة أيّام. أمّا النساء من أسرة المتوفَّى، فيجلسن على بساط يُفرش على الأرض، قرب المكان الذي مات فيه فقيدهن، لتقبّل العزاء من المعارف والأهل"[38:291].

أما اليهودية فيتحدث هاليفي عن تقارب مع الطقوس الإسلامية مذكور في التلمود البابلي يمنع النساء من الندب على الموتى بطريقة عنيفة، وهو التشابه الوحيد بينهما, وأفقر زوج عليه وفقاً للمشناه[39:13:249] عليه أن يوفر مزمار وامرأة تندب على زوجته الميتة، ولم يعترض الأحبار على طقوس الندب بكل أشكالها إلا إذا تعارضت مع الأيام الوسيطة (عيد الفصح،والمظال)، وحاول المسلمون الابتعاد عن الطقوس اليهودية، ولم يتأثروا بتلك الطقوس[1:242]، ومن طقوس الحداد اليهودية حظر القيام بأي عمل في الأيام الثلاثة الأولى المخصصة حصراً للبكاء والنواح. ويُعتاد الجلوس على الأرض طيلة فترة الأيام السبعة وتغطية جميع المرايا في المنزل فيما يمزّق أبناء عائلة المتوفي ثيابهم بل يضع بعضهم الرماد على رأسهم. ومن المحظورات في مدة الحداد كل ما من شأنه أن يُمتّع النفس مثل الاغتسال وقص الشعر واللحية وتغيير الملابس وغسلها وانتعال الأحذية المصنوعة من الجلد وحضور الحفلات والسهرات. وهناك من يتجنب أيضاً تناول اللحوم والنبيذ لكونها ترمز إلى مشاعر البهجة والاحتفال. ومن المعتاد ارتداء نفس الملابس التي تم تمزيقها خلال الجنازة طيلة فترة الأيام السبعة وعدم استبدالها بملابس جديدة أو مكويّة، وهذه الطقوس لا تشابه الطقوس الإسلامية في شيء لا في موضوع الندب عن طريق المزمار والنائحة، ولا الطقوس التي تحدثنا عنها للتو، من وضع الرماد على الرأس، أو ارتداء الثياب التي تم تمزيقها طيلة مدة العزاء.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

تحرى هاليفي الفروقات بين طقوس الحداد والنياحة المسيحية والإسلامية، وقدم متبنياته أن الخطاب الإسلامي هو استنساخ للخطاب المسيحي، أو مستعاراً منه، وعضد هذه المتبنيات بتشابه الطقوس وفقاً للأطروحة الإسلامية المتشددة في هذه الطقوس والمسيحية التي رفضت كل أشكال الحداد العنيفة التي لا تتلائم مع العقيدة المسيحية، وصدرت قرارات كنسية بهذا الشأن ترفض اللطم، والأغنية الرثائية الحزينة، وانتقدت النساء لانغماسهن في الممارسات الوثنية، ومنع النساء اللاتي يذهبن إلى القبور بالصنج[15:1: 325] والخشخيشات[40:2: 33] والقفزات الراقصة، ومنع رجال الدين من دخول البيوت التي جرى فيها ندب ونياح عنيف، ولعل ما جاء في الإصحاح الرابع عشر من الكتاب المقدس بهذا الشأن خير دليل على ذلك فجاء فيه:" أنتم أولاد للرب إلهكم. لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت"، وحصل بالتقادم تراخٍ في مرافقة النساء المسيحيات للجنازة وتلاوة المزامير والترانيم ووصفوه بأنه عمل ديني يجب القيام به[1:243–245]، وهنا وقع الخلاف من جديد بين الطقسين الإسلامي المتشدد الرافض لوجود النساء في الجنائز خوفاً من عدم السيطرة على تصرفاتهن العنيفة التي قد تحط من قدر الرجال في هذه المحافل، والمسيحي الميال إلى تواجد النساء في هكذا محافل، ويمكن الوصول إلى أن طقوس النياحة والحداد الإسلامية المتشددة لا تلتقي مع طقوس الحداد الزرادشتية واليهودية والمسيحية.

الخاتمة

خاتمةُ هذه الدراسة التي تناولت الموت والنياحة والطقوس المتعلقة بهما التوصل إلى نتائج من أبرزها: أن المذاهب الإسلامية لم تتفق على مبادئ مشتركة في طقوس النياحة فاختلفت من مذهب إلى آخر بين التشدد والليونة، وقدم ليور هاليفي دراسة ناضجة عن طقوس النياحة في الإسلام باعتماده الكثير من المصادر الإسلامية, ودافعت النساء عن حقها في النياحة واستطاعت أن تتغلب على المصاعب التي أوجدها الفقهاء الأوائل الذين حاولوا منع النساء من أداء طقس النياحة على الموتى عن طريق سوق العديد من الأحاديث التي اختلف البعض معهم من الرجال والنساء بصحتها، وخلصت الدراسة إلى نتيجة أخرى تجسدت بمحاولة الفقهاء تقديم الخدمة إلى الحكام عن طريق منع النياحة لاسيما في المناطق الثائرة خوفاً من الغضب المصاحب للنياحة الذي يمكن أن يفضي إلى ما لا يحمد عقباه، ولم يوفق هاليفي عندما أراد أن يربط موضوع النياحة وحقوق المرأة في الإسلام بالجندر (الجنس الاجتماعي) واصفاً إياها بالتخلف والظلم والاضطهاد الذي تعرضت له في الإسلام، ودراسة هكذا مواضيع يمكن أن تضيف للباحث معلومات قيمة حول طقوس الموت في الإسلام ومنها النياحة.

CONFLICT OF IN TERESTS
There are no conflicts of interest

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **الكتاب المقدس.**

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[1] قبر محمد طقوس الموت وتكوين المجتمع الإسلامي، ليور هاليفي، ترجمة: هلال محمد الجهاد، ط1،المركز الأكاديمي للأبحاث، (بيروت – 2024م).
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع، دار صادر،(بيروت– ب. ت).
[3] أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير: علي بن محمد الجزري، دار الكتاب العربي،(بيروت– ب.ت).
[4] صحيح مسلم، مسلم: أبي الحسين مسلم بن الحجاج, دار الفكر،(بيروت– 1930م).
[5] الكبائر، الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، تح: إحسان عبد المنان، ط1، دار الخير للطباعة،(بيروت – 1995م).
[6] تهذيب التهذيب، ط1، ابن حجر. احمد بن علي، دار الفكر،(بيروت–1404هـ/1984م).
[7] مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد، الشهيد الثاني، علي بن أحمد، تح: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط1، مطبعة مهر، (قم – 1987م).
[8] معجم البلدان، الحموي: ياقوت محمد بن عبد الله، دار إحياء التراث العربي،(بيروت – 1977م).
[9] أعمال لوقيانوس السُمسياطي، لوقيانوس، ترجمة: سعد صائب ومفيد عرنوق، ط1، دار المعرفة،(دمشق – 1987م).
[10] الانثروبولوجيا، مارك أوجيه – جان بول كولاين، ترجمة: جورج كتورة، ط1، دار الكتب الجديدة، (بيروت – 2008م).
[11] المغني، ابن قدامة: عبد الله بن احمد، دار الكتاب العربي،(بيروت– ب.ت).
[12] الاستيعاب، ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد، تح: محمد البجاوي، ط1، دار الجيل،(بيروت– 1992م).
[13] ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، ب ت.
[14] لسان العرب ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أدب الحوزة،(قم– ب.ت).
[15] الصحاح تاج اللغة والصحاح العربية، الجوهري: احمد بن عبد العزيز، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم لملايين، (بيروت–1987م).
[16] نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخبار، الشوكاني: محمد بن علي، ط1، دار الجيل، (بيروت – 1973م).
[17] أنساب الأشراف، البلاذري: أحمد بن يحيى، تح: محمد حميد الله، دار المعارف،(القاهرة– 1959م).
[18] الأنساب، السمعاني: عبد الكريم التميمي، تح: عمر عبد الله البارودي، ط1، دار الجنان،(بيروت– 1988م).
[19] الوافي بالوفيات، الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك، تح: احمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، ب.ط، دار إحياء التراث العربي،(بيروت– 2000م).
[20] الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: علي ابن الحسين، دار إحياء التراث العربي،(بيروت– ب.ت).
[21] دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، القاضي النعمان: محمد، تح: آصف بن علي أصغر فيضي،ط1، دار المعارف،(القاهرة– 1963م).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

[22] صحيح البخاري، البخاري: محمد بن إسماعيل، دار الفكر للطباعة،(بيروت–1981م).
[23] مسند الإمام أحمد، ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، دار صادر،(بيروت– ب. ت).
[24] المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله النيسابوري، تح: يوسف عبد الرحمن، دار المعرفة،(بيروت– 1985م).
[25] تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسميه من حل بها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، ابن عساكر: علي ابن الحسين، تح: علي شيري، دار الفكر،(بيروت– 1995م).
[26] تهذيب الكمال في أسماء الرجال, المزي: أبي الحجاج يوسف، تح: بشارعواد، ط4،(ب.مك– 1985م).
[27] تاريخ الرسل والملوك، الطبري: محمد بن جرير،تح: نخبة من العلماء، الأعلمي،(بيروت– 1983م).
[28] البداية والنهاية، ابن كثير: اسماعيل بن عمر، تح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي،(بيروت– 1988م).
[29] سير أعلام النبلاء، الذهبي: محمد بن احمد بن عثمان، تح: حسين الأسد،ط9، مؤسسه الرسالة،(بيروت – ب.ت).
[30] فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر. احمد بن علي، ط2، دار المعرفة،(بيروت– ب. ت).
[31] العبر في خبر من غبر، الذهبي: محمد بن احمد بن عثمان، تح: فؤاد سيد، (الكويت– 1961م).
[32] تذكرة الحفاظ، الذهبي: محمد بن احمد بن عثمان، تح: عبد الرحمن بن سحين المعطي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت – ب.ت).
[33] المناحة العظيمة الجذور التاريخية لطقوس البكاء من بابل إلى كربلاء، فاضل الربيعي، ط2، دار الهجان، (البصرة – 2019).
[34] الثقات، ابن حبان:أبو حاتم محمد بن حبان، تح:محمد عبد المعيد خان،مؤسسه الكتب الثقافية،(الدكن–ب. ت).
[35] وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الحر العاملي: محمد بن الحسن، ط1، تح: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، مطبعة مهر،(قم – 1994م).
[36] سيرة ابن هشام، ابن هشام: عبد الملك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني،(القاهرة–1383ه/ 1963م).
[37] تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تح: خليل المنصور، مطبعة سنارة، (قم –1428ه/2008م).
[38] الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، خليل عبد الرحمن، ط2، روافد للثقافة والفنون، (دمشق – 2008م).
[39] الصحيح من سيرة الامام علي، العاملي:جعفر مرتضى، ط1، مطبعة دفتر تبليغات إسلامي، (قم 1990م).
[40] النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك، تح: طاهر احمد الرازي ومحمود محمد الطناجي، مؤسسة اسماعيليان، (قم– ب.ت).

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License
Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH Email: humjournal@uobabylon.edu.iq